السجع والفواصل ولزوم ما لا يلزم

جدوى درس البديع فى وحدات (استهلال).

رأينا ن نشرح لك مَنْهَجَنَا فى دَرْس وجوه البديع من خلال وَحْدات تجمع المتشابه وتُرَتِّبه ترتيبا خاصا من خلال تجربة مرَّ بها أديبان دارسان للأدب فى العصر الحديث هما عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى .

هاجم العقاد والمازنى التقاليد الفنية فى أدبنا فى هجومهما غيرِ المُنْصِفِ على أمير الشعراء أحمد شوقى فى كتابهما (الديوان) الذى أَصْدَرَاهُ فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، وقد انفعلا فيه بروح الثورة ، فقالا إنهما سيهدمان التقاليد الفنية البالية ثم يقيمان تصورهما للأدب إنْشَاءً ودِرَاسَةً على قِيَمٍ فنيةٍ جديدةٍ ، ووَعَدَا بإصدارِ الديوان فى عَشْرَةِ أجزاء ، وعَبَّرَا فى الجزءين الأول والثانى عن خطتهما .

أدرك المخلصون لهما وللتراث أنهما من الجيل الذى أجاد الانجليزية فَهْمًا ودراسة ، وصار قادِرًا على نظم الشعر بالانجليزية وعلى الكتابة فى درس الأدب باللغة الانجليزية بعد أن اطلع على عيون الأدب الانجليزى . ولكنهما يجهلان التراث العربى – ومَنْ يجهلْ شيئا يُعادِيه – فهما قد صدرا فى (الديوان) عن انبهار بالأدب الغربى عامة والانجليزى خاصة وعن جهل بتراثهما .

لذلك نصحَهُما المخلصون بالتعرف على التقاليد الفنية فى أدبنا العربى من خلال عَرْضِ شاعرٍ دارِس للأدب عارِفٍ بالتقاليد الفنية هوأبوعلى الحسن بن رَشِيقٍ القَيْرَوَانِى فى كتابه (العُمدة فى مَحَاسِنِ الشعرِ وآدابِهِ ونَقْدِهِ) .

وكانت النتيجة أن كسب تراثنا دَارِسَيْن ، وخسر عدوين توقفا عن إصدار الجزء الثالث من (الديوان) والأجزاء التالية . أما كيف استطاع ابنُ رَشِيق بكتابه العُمدة إحداثَ هذا الأثرَ الخطيرَ فى الرجلين فيرجع إلى أمُورٍ كثيرةٍ منها أنه كان أديبا دَارِسًا للأدب يُجِيدُ التفتيش فى دواوين الشعراء عن البديع من أشعارهم ، كما يُجِيدُ عَرْضَ قضايا الأدب إنشاءً ودِرَاسَةً . ومنها صِدْقُ العقادِ والمازنى مع نفسيهما وصحة ولائهما لوطنهما وأمتهما فكانا من أصحاب فضيلة الرجوع إلى الحَقِّ عند تَبَيُّنِهِ .

يرجع تفسير جودة عرض ابن رشيق البديع إلى أنه لم يُكثِر من تفريعات وجوه البديع بل العكس هوالذى فعله ؛ فقد أرجع كثيرا من التشقيقات إلى أصولها وضَمَّ الوُجُوهَ المُتَشَابِهَةَ إلى بعضها ، وأجاد ترتيبَها بحيث يُفْضِى الأولُ منها إلى الثانى، ويفضى الثانى إلى الثالث وهكذا. ومن هنا أدركَ العقادُ والمازنىّ أَنَّ الوَحْدَةَ العُضْوِيَّةَ التى ظَنَّا أنهما استورداها من الأدب ودَرْسِهِ فى انجلترا قد أجاد عرضها ابنُ رشيق فى العُمدة قبل كولردج ووردزورث اللذين تأثرا بهما فى الديوان (٢٣).

ونحن نحرص على جَمْعِ وُجُوهِ البديع التى تعالج قضية واحدة وندرسها متتابعة مثبتين عُقْمَ التقسيم المنطقى الساذج الذى قُسِّمَ علمُ البديع بناء عليه إلى قسمين هما : البديع اللفظى ، والبديع المعنوى ، وستجد فى حديثنا عن السجع وغيره ما يُخَالِفُ هذا التقسيم ويدعوإلى عدم اعتماده . وستجد أننا بهذا المنهج فى الدرس نُثْبِتُ - ضِمْنًا -بُطْلَانَ الدَّعَاوَى التى وُصِمَ بها الدرس البلاغى ونُثْبِتُ عكسها بالدليل العلمى .

المقايسة بين السجع والفواصل

سمى الجاحظ هذا الدرس (باب من الأسجاع فى الكلام)(٢٤) ، وسماه ابن الأثير فى المثل السائر (السجع) ، وسماه يحيى بن حمزه العلوى فى الطراز (التسجيع). أما تقى الدين أبوبكر بن حِجّة الحَمَوِىّ فى كتابه (خِزَانَةِ الأدب وغاية الأَرَبِ) فقد سماه(السجع) وسماه ابن أبى الإصبع المصرى فى كتابه (بديع القرآن) التسجيع . وهوعند السكاكى (تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد) وقال: "الأسجاع من النثر كالقوافى فى الشعر" .

اتفقوا على وروده فى القرآن والسنة والنثر والشعر . كما اتفقوا على التمييز بين نوعين منه ؛ نَوْعٍ يُقْهَرُ فيه المعنى هوسَجْعُ الكُهَّان ، ونوعٍ يُلْتَمَسُ فيه المعنى ويوافقه اللفظ وهوالمعروف فى القرآن والسنة والشعر والنثر .

فالإجْمَاعُ تَامٌ على كَرَاهَةِ سَجْعِ الكُهَّان وما شابهه،والإجماع تام على استحسان السجع الداعى إلى مَكارِم الأخلاق . ألا يتضمن هذا الإجماع أن القدماء أدركوا وجودَ أدبين ؛ أدب يرضى عنه كلُّ الناس ، وأدب لايرضى عنه إلا أصحاب المنفعة،وترتيبا على هذا الإدراك ألا ترى أن الإجماع لابد أن ينعقد على التمييز بين الأدبين فى التسمية ؟!نوقفك على نماذج لكل منهما قبل الاسلام :

- مما رواه الجاحظ فى البيان والتبيين من أسجاع قُسِّ بْنِ ساعِدَة الإيَادِىّ الداعى إلى التوحيد قبل الإسلام ، ويكفيه فخرا قول الرسول عليه الصلاة والسلام عنه :

" رأيتُهُ بسُوقِ عُكَاظٍ على جَمَلٍ أحمَرَ وهويقول :(أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا . مَن عاش ماتَ ومن مَاتَ فَاتَ ، وكلُّ ما هوآتٍ آتٌ)(٢٥) .

"وهوالقائل فى هذه : "آياتٌ مُحْكَمَاتٌ ، مَطَرٌ ونَبَاتٌ ، وآباءٌ وأُمَّهَاتٌ،وذاهبٌ وآتٌ ، ضَوْءٌ وظَلامٌ ، وبِرٌّوآثامُ ، ولِباسٌ ومَرْكَبٌ ، ومَطْعَمٌ ومَشْرَبٌ ، ونجومٌ تَمُورُ، وبُحُورٌ لا تَغُورُ ، وسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، ومِهَادٌ مَوْضُوعٌ، ولَيْلٌ دَاجٌ ، وسَمَاءٌ ذَاتُ أبْرَاجٌ . مالِى أَرَى الناسَ يَمُوتُونَ ولا يَرْجِعُون ، أَرَضُوا فأقامُوا أم حُبِسُوا فناموُا ؟

وهوالقائل : يا مَعْشَرَ إيَادٌ ، أين ثمودُ وعادٌ ، وأين الآباءُ والأجدادُ ، وأين المعروفُ الذى لم يُشْكَرْ ، والظلمُ الذى لم يُنْكَرْ . أقسَمَ قُسٌّ قَسَمًا باللهِ ، إن للهِ دنيا هوأرْضَى لَكُم من دِينِكُم هذا ."(٢٦)

" وأنشدوا له :

فى الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِيـــنَ مِن القُرُونِ لَنَا بَصَـائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَـوَارِدًا للموتِ ليْسَ لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قَوْمِى نَحْوَها يَمْضِى الأَصَاغِرُ والأَكَابِرْ
لايرجِعُ المَـاضِى ولا يَبْقَى مِنَ البَاقِينَ غَـابِرْ(٢٧)
أَيْقَنْتُ أَنِّى لا مَحَـا لَةَ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ"

ومما رواه فى باب أسجاع .

قال :" عبد الله بن المبارك ، عن بعض أشياخه ،عن الشعبى قال : قال عيسى بنُ مريم عليه السلام :"البرّ ثلاثة : المَنْطِقُ،والنَّظَرُ ، والصَّمْتُ : فَمَنْ كان مَنطقُهُ فى غَيْرِ ذِكْرٍ فقد لغا ، ومَنْ كان نَظَرُهُ فى غَيْرِاعْتِبَارٍ فقد سَهَا ، ومَنْ كان صَمْتُهُ فى غَيْرِ فِكْرٍ فقد لَهَا ."(٢٨)

نكتفى بهذين النصين من الأسجاع من الأدب الإيمانى الذى يَرْضَى عنه كل الناس والذى يدل على أن الفَتْرَةَ السابقة على الإسلام لم تَخْلُ للجاهلية ، فقد كان فيها من يدعوإلى التوحيد والتفكير فى خلق السموات والأرض والتأثر بالحنيفية واليهودية والمسيحية وهدايات الأنبياء من العرب؛هود وصالح وشعيب .

عَدَّ الجاحِظُ فى هذا النص قُسَّ بن ساعِدَةَ خَطِيبَ إِيَادٍ ، وفى موضع آخر من كتابه عَدَّهُ مِنْ خُطَبَاءِ العَرَبِ الذين خاطبوا كُلَّ العَرَبِ فى الأسواق . والسجع كما ترى يعتمد على اتفاق الفاصلتين فى جنس الحرف وجُمَلُهُ الغالِبَةُ قصيرةٌ، ولم يقتصر على النثر فقد ظهر فى شعره التزام بحركة . والكراهة التى حدثونا عنها للسجع لاتتصل بهذا الأدب ، فقائله مُنْطَلِقٌ غيرُ مُتَكَلِّفٍ ، وصِدْقُهُ فى دَعْوَتِهِ حقَّقَ إصابة لفظه حقيقةَ مَعْنَاهُ كما تحقق لقوله القَبُولُ لمَنْ يسمعُهُ.

والنص الثانى من السجع صِيَاغَةٌ عربية لمعنى مُترجم إليها عن المسيح عليه السلام ، ولكى يتحقق له الانتشار صِيغَ بالتزام السجع فى الفواصل الثلاث؛ لغا وسها ،ولها.

تخلص بحقائق هى : الدعوة إلى الله قبل الاسلام التزمت السجع ، وهومقبول غير مكروه وغير متكلف وقد أصاب أصحابه حقائق معانيهم .

أما السجع المكروه المَنْهِيُّ عنه فمنه سجع الكُهَّان . قال الجاحظ :" وكان الذى كَرَّهَ الأسجاع بعينها،وإن كانَتْ دون الشِّعْرِ فى التكلف والصنعة –أن كُهَّانَ العَرَبِ الذين كان أكثرُ الجاهلية يتحاكمون إليهم. وكانوا يَدَّعُونَ الكهانة وأَنَّ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ رِئِيًّا من الجن مثل حَازِى جُهَيْنَة ، ومثل شِقٍّ وسَطِيح ، وعُزَّى سَلِمَه وأشباههم

كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : (والأَرْضِ والسَّمَاءْ ، والعُقَابِ الصَّقْعَاءْ ، واقِعَةً بِبَقْعَاءْ ، لقد نَفَرَ المَجْدُ بَنِي العُشَرَاءْ ، للمَجْدِ والسَّنَاءْ)(٢٩)

وهناك نماذج أخرى يرويها الطبرى فى حوادث سنة ١١ هجرية نوقفك على أقلها فُحْشًا ، منها قول سَجَاح المرتدة لأتباعها وقد قالوا لها إن شوكة أهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ أمر مسيلمة -: (عليكم باليَمَامَه ؛ ودُفُّوا دَفِيفَ الحَمَامَهْ، فإنها غَزْوَةٌ صَرَّامَه ، لا يلحقكم بعدها مَلَامَهْ .) ومنها الحوار المسجوع بين مُسيلمة وسجاح قالت:(لايَرُدُّ النَّصْفَ إلا مَنْ حَنَفْ ، فاحْمِل النِّصْفَ إلى خَيْلٍ تراها كالسَّهَفْ) فقال مسيلمة :(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ سَمِعْ ، وأطمعه بالخير إذ طَمِع ، ولازال أَمْرُهُ فى كل ماسَرَّ نَفْسُهُ يجتمِعْ،رآكم ربُّكُم فحَيَّاكُم ومِنْ وَحْشَةٍ خَلَّاكُمْ ، ويوم دينه أنجاكُمْ ، فأحياكم علينا من صلوات مَعْشَرٍ أَبْرَارْ ، لا أشقياء ولا فُجَّارْ ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكَبَّارْ ، ربِّ الغُيُومِ والأَمْطَارْ)(٣٠)

فى النص الأول حكم أكهن العرب وأسجعهم سلمه بن أبى حية (٣١) لبنى العُشَرَاء من مازن بن فزارة بن ذبيان بالمجد والرفعة فأقسم بالأرض وبالسماء وبالعقاب التى وسط رأسها بياض والتى وَقَفَتْ فى أرضٍ ذاتِ حَصَىً صغار . وكل فواصله ذات همزه ممدودة والسؤال ماقيمة القسم هنا الدلالية ؟ هل كل هذه الموجودات معبودات ؟! وما الرابط بينها ، واذا كانت كل الموجودات مقدسة عنده فلماذا خص هذه الموجودات بالذكر ؟ لماذا خص العُقَابَ واقفا فى أرض ذات حصى عن العقاب الطائر أوالواقف على قُنَّةِ جبل .ليس هناك جواب عن هذه الأسئلة سوى أن السجع ألزم الكاهن الكلمات الممدودة فهويطلب اللفظ وليس وراءه معنى محدد يقصده .

أما حديث سجاح ومسيلمة فبادى السخف ولايقوم إلا على النفع لقائله والحقد للإيمان وللمؤمنين . ارجع إليه فستجد أنك أمام الجاهلية بكل ما اشتملت عليه من سَفَاهَةٍ ومُجُونٍ ومَنْفَعَةٍ شخصيةٍ وحِقْدٍ على الإيمان والمؤمنين وهذه كلها لوازم الإلحاد .

الخلاصة إن الأسجاع قبل الإسلام عَبَّرَتْ عن أدبين مختلفين فهى مظهر لفظى لا يجوز الحكم له أوعليه إلا من خِلَالِ مَضْمُونِهِ الفِكْرِى والوجدانى وهدفه الاجتماعى .

دعا إلى التمييز بين اللونين فى التسمية أبوالحسن على بن عيسى الرمانى المعتزلى (٢٩٦-٣٨٦هـ) فى رسالته : (النكت فى إعجاز القرآن) فقال:"الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع تُوجِبُ حُسْنَ إفهام المعانى ، والفواصل بلاغة . والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى أما الأسجاع فالمعانى تابعة لها وهوقلب ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ فى الدَّلَالَةِ .(٣٢)

كان الرمانى مُعَبِّرًا عن رَأْيِ جُمهورٍ من أهل السنة ومن المتكلمين استندوا إلى أن القرآن سمى هذه الظاهرة الأسلوبية فواصل ، والاتِّبَاعُ واجِبٌ فى هذه التسمية ، كما أدركوا أن الفواصل مختلفة عن الأسجاع شكلا ومضمونا . وقد عبر أبوبكر محمد بن الطيب الباقلانى عن ذلك فى (فصل نفى السجع من القرآن) فى كتابه (إعجاز القرآن).(٣٣)

تتفق اللغة مع المصطلح مع النص القرآنى الواجب اتباعه على تسمية هذا الوجه البديعى فواصل . فالفَصْلُ لُغَةً : إبانَةُ أَحَدِ الشيئَين من الآخر حتى يكون بينهما فُرْجَةٌ ،وفَواصِلُ القِلَادَةِ شَذَرٌ يُفْصَلُ به بينهما ، والفواصل : أواخر الآى. قال تعالى :(آلر كتاب أحكمت آياته ثم فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حكيم خبير) هود١. قال الزمخشرى : (أحكمت آياته) نظمت نظما رصينا مُحْكَمًا لايقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم وعن قتاده : أُحْكِمَت من الباطل .(ثم فصلت) كما تفصل القلائد بالفرائد وعن عِكْرِمه والضحاك (ثم فُصِّلَت) أى فَرَّقَتْ بين الحَقِّ والبَاطِلِ." (٣٥)

كما قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى :(كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) فصلت٣ . قال :(فصلت آياته) مَيَّزَتْ بين الحق والباطل ، أوفُصِلَ بعضها من بعض باختلاف معانيها . فُصِّلَتْ آياتُه فى حال كونه قرآنا عربيا (لقوم يعلمون) أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم

العربى المبين لا يلتبس عليهم شىء منه .»(٣٦) مُثْبِتًا أَنَّ الفَوَاصِلَ أَدَلُّ على الإيمان والحكمة وطبيعة الذوق العربى فى بيانه المقنع المؤثرمن السجع .

أدى تنبيه الرمانى وتوضيح الباقلانى ثم تفسير الزمخشرى إلى ازدياد المقايسة بين الأسجاع والفواصل واتصل هذا الدرس منذ حدثنا الجاحظ عن أن كَرَاهَةَ الأسجاع تنحصر فى استخدامها فى إبطال حق أوتزيين باطل،نعرض عليك جانبا مما قيل فى المقايسة بين السجع والفواصل :

أثار ابنُ حِجة الحموى قضيتين فى هذا الدرس أولاهما : قضية العلاقة بين السجع والفواصل ، قال :" واخْتُلِفَ فيه هل يُقَالُ فى فَوَاصِلِ القرآنِ أَسْجَاعٌ أولا .فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه .

والذى منع تمسك بقوله تعالى (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ) فصلت٣ فقال :قد سماه فواصل،وليس لنا أن نتجاوز ذلك .»(٣٧) وثانيهما : أن مجال السجع ليس النثر فقط وإنما نلتمس شواهده فى الشعر أيضا وقد تكفل بالبرهنة على صحة ما ذهب إليه باستعراض شواهد السجع فى الشعر .

أما القضية الأولى فهى بالغة الخطر لأنها تمس الدرس فىالمصطلح والمحتوى،

وليست خلافا شكليا ؛ لأننا ينبغى أن نجيب على هذا السؤال : السجع والفواصل أيهما العام وأيهما الخاص فى هذا الدرس ؟

الواقع أن السجع أوالمسجع أوالتسجيع هوالاسم العام لهذا الوجه منذ الجاحظ إلى ابن حجة الحموى ، أى خلال القرون من الثانى إلى التاسع وما بعده.(٣٨)

والواضح أن الالتزام بتسمية هذا الوجه البديعى فى القرآن فواصل لا يعنى عند من أثاروا القضيةاختلافا بين مضمون الفواصل ومضمون الأسجاع ولكنه يعنى الالتزام بالتسمية القرآنية لظاهرة سماها القرآن فواصل وهى عينها التى سماها الأدباء سجعا فبين لفظى الفواصل والأسجاع ترادف تام عندهم .

ولكننا نرى أن هذا التصور غير صحيح ونوافق أبا بكر محمد بن الطيب

الباقلاني فيما ذهب إليه من نفى السجع من القرآن وإثبات الفواصل ، وأن الفواصِلَ أَعَمُّ من الأسجاع ، ونضيف أن الأدباء تأثروا بالقرآن والسنة فى هذا الجانب وأتاح لهم عُمُومُ دِلَالَةِ الفَوَاصِلِ ، وهواتفاق الفاصلتين أوالفواصل فى جنس الحرف أوفى نفس المخرج أوفى مخرج قريب= حرية أكثر فى التعبير من شرط السجع المُلْجِئ إلى التكلف وهوتواطؤ الفاصلتين أوالفواصل على حرف واحد .

تضمنت معالجة الجاحظ السجع شواهده من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقوال السلف، والأدباء.وأورد بيتى النَّمِر بن تَوْلِب ولكنه لم يتعرض لورود هذا الوجه البديعى فى القرآن ولا نحسب إلا أن سُكُوتَه هذا موقف فقد عرض الفَرَّاءُ قبله القضية فى كتابه (معانى القرآن) :

ونختار قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) لم يقل دينى بالياء لأن الآيات بالنون فحُذِفَت الياء كما قال عز وجل .(الذى خلقنى فهويهدين والذى هويطعمنى ويسقين) .

وقوله عز وجل :(ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون) المرسلات٣٦ نُوِيَتْ بالفاء أن تكون نَسَقًا على ما قبلها ، واختير ذلك لأن الآيات بالنون . فلوقيل فيعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال الله تعالى :(لايُقْضَى عليهم فَيَمُوتُوا)فاطر٣٦ بالنصب ، وكُلٌّ صَوَابٌ."

فالقراءة جاءت بإثبات النون فى (يعتذرون) لتُوَافِقَ ما حولها من الآيات فيتحقق النَّسَقُ الصوتى ، مع أنه يجوز فى العربية حذف النون من هذه الآية لنصب المضارع بعد فاء السببية ، كما جاء فى قوله تعالى :(لايقضى عليهم فيموتوا) ولكنه فضل الرفع بإثبات النون لتحقيق الموسيقى اللفظية بين رؤوس الآيات . فكأن القرآن الكريم عمد إليها عَمْدًا لتحقيق هذا الهدف الصوتى ، لأنها من حيث المعنى سواء ."(٤٠)

فجهد الفراء متوفر على رصد هذه الظاهرة البلاغية فى القرآن وبيان تكرارها أما تفسيره لها فلم يخرج على كونها من وسائل التأثير الصوتى فى السامعين. هل اكتفى الجاحظ باشارة الفراء ؟!

السر فى كراهة الأسجاع

أما ما ذهب إليه المتكلمون والحاصل المعتمد من مذهب أهل السنة فهو نفى السجع من القرآن وإثبات الفواصل . والأمر لا يقتصر على كراهة الأسجاع لاتصالها بكلام الكهان فى الجاهلية ، واستخدامها فى الإسلام لإبطال حق وتزيين باطل ، فقد استخدمها المرتدون فى عهد أبى بكر الصديق ، ونهى الرسول عن استخدام السجع فى إبطال حق فى خبر رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ورواه الأزهرى ونقله عنه صاحب اللسان . قال الأزهرى : " ولما قال النبى فى جنين امرأة ضربتها أخرى فسقط ميتا ناقص التَّمُّوحَكَمَ بالدِّيَةِ على الضاربة ، فقال الرجل من قبيلتها : كيف نَدِى (ندفع الدية) من لاشَرِبَ ولا أَكَلَ،ولا صاح فاستَهَلَّ، ومِثْلُ دَمِهِ يُطَلّ؟!

قال النبى صلى الله عليه وسلم: أسجاعه الكهان!

وقد فسر الجاحظ الانكار فى استفهام الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه لم يَنْهَ عن السجع وإنما نهى عن استخدامه فى إبطال حق أوتزيين باطل .

وكتب الأدب تروى أحاديث كثيرة للرسول عليه الصلاة والسلام اشتملت على السجع ، وتجرأ كثيرون فالتمسوا هذه الظاهرة البلاغية فى القرآن الكريم وأدخلوها تحت حكم السجع ، والتُّقَاةُ منهم سَمَّوْهَا فَوَاصِلَ فى القرآن وأسجاعا فى غير القرآن.

احتجاج الباقلانى للفواصل

وقد أجمع الجاحظ والرمانى وأصحاب أبى منصور الماتريدى وأبوالحسن الأشعرى وأبوبكر الباقلانى وأهل السنة على نفى السجع من القرآن الكريم وأرجعوا ذلك إلى اختلافات جوهرية بين السجع والفواصل . وعبر عن هذه الاختلافات أبوبكر الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) ورأينا أن نوجز لك رأيه الذى عرضه فى فصل(نفى السجع من القرآن).(٤١)

قال :"ذهب أصحابُنا كُلُّهم إلى نَفْيِ السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه.

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يَبِينُ به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات ، وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة ، وأقوى ما يستدلون به عليه : اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام ، ولمكان السجع قيل فى موضع (هارون وموسى)طـه٧ ولمكان الفواصل فى موضع آخر بالواووالنون قيل (موسى وهارون) الأعراف١٢٢،ويبنون الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع .

وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولوكان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولوكان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ولوجاز لهم أن يقولوا :هوسجع مُعْجِزٌ ، لجاز لهم أن يقولوا : شِعْرٌ مُعْجِز. وكيف والسجع مما كان يألفه الكُهَّانُ مِنَ العرب ، ونَفْيُه من القرآن أَجْدَرُ بأن يكون حُجَّةً من نفى الشعر ، لأن الكِهَانة تُنَافِى النبوة ، وليس كذلك الشعر .... والذى يقدرونه أنه سجع فهووَهْم ، لأنه قد يكون الكلام على مِثَال السجع وإن لم يكن سجعا لأن ما يكون به الكلامُ سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع

المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع وليس كذلك ما اتفق مما هوفى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى . وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ.

.

ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مُسْتَجْلَباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى :

وقد علمنا أن ما يدعونه سجعا مُتَقَارِبُ الفَوَاصِل ، مُتَدَانِى المَقَاطِع وبعضها مما يمتد حتى يتضاعَفَ طُولُه عليه وتَرِدُ الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غَيْرُ مَرْضِيٍّ ولا مَحْمُودٍ . وفواصِلُ القرآن – مما هومختص بها–لا شِرْكة بينه وبين سائر الكلام فيها أوتناسب (٤٢) . وأما ماذكروه من تقديم موسى علىهارون عليهما السلام فى موضع لمكان السجع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام....فليس بصحيح ، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه ، وهى : أَنَّ إعادَةَ ذِكْرِ القِصَّةِ الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب ، الذى تظهر به الفصاحة وتتبين به البلاغة . وأُعِيدَ كثيرٌ من القصص فى مواضِعَ كثيرةٍ مختلفة على ترتيبات متفاوته ونبهوا بذلك عن عجزهم عن الإتيان بمثله مُبْتَدَأً به ومُكَرَّرًا ....

وأما الفَوَاصِلُ فهى حروف مُتَشَاكِلَةٌ فى المقاطع (٤٣) ، يقع بها إفهام المعنى وفيها بلاغة ...ثم الفواصل قد تقع على حروف مُتَجَانِسَةٍ ، كما قد تقع على حروف مُتَقَارِبَةٍ ولا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل ، لأنها ليست فى الطبقة العُليا فى البلاغة،

لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى وإقامة الوزن ."

ردنا على الباقلانى

أوجز كلام الباقلانى فى موضوع (نفى السجع من القرآن) وتدرك أن المتكلمين احْتَجّوا لبيان صِحّته فى مناظراتٍ كثيرةٍ ووقف فى صَفِّهم أهلُ السُنَّةِ أصحابُ الإعجاز فى مواجهة بعضِ الأدباءِ الكُتّابِ وانظر على سبيل المثال قول أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلى (ت٦٣٧هـ) : " وقد ذمه (المسجع) بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها سوى عَجْزِهم أن يأتُوا به ، وإلا فلوكان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى ليُؤْتَى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما ، وبالجملة فلم تَخْلُ منه سورة من السور "(٤٤)

ونرى رأْيا نَعْرِضُهُ عليك فى الفصل فى هذه الخصومة بين أصحاب الاتجاهين، فنقول:

إن الباقلانى اعتبرَ السجعَ عيبًا ، وقَرَنَهُ بسجع الكُهّانِ وأبَانَ عن كراهة الرسول صلى الله عليه وسلم له . وَنَزَّهَ القُرآن عن أن يشبه كلام الناس فى تأليفه، واعتبر السجع صنعة لفظية يُزَيَّنُ بها الكلام بعد تأليفه ، وهذا يستدعى أن يتبع المعنى اللفظ والمفروض أن يتبع اللفظ المعنى ، والصحيح ألا يتبع أحدُهما الآخر وإنما أن يعبر عن المعنى باللفظ الذى هوحَقُّه وحَظُّه ونَصِيبُه الذى لا يجاوزه ولا يُقَصِّرُ دونه . هذه هى نظرية التَّلازُم فى الوُجُودِ فى العلاقة بين اللفظ والمعنى وأنهما كالروح والجسد .

وقد تصدى الجاحظ فى البيان والتبيين للرد على ما أثير حول كراهة السجع فليس كل سجع عيبا ، وقد كره الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة التَّشَادُقَ فى الكلام واستخدام السجع فى إبطال حق أوتزيين باطل . وسبب الكراهة قُرْب عهد العرب بالجاهلية وتأثير سجع الكهان فيهم ، فلما زالت العلة زالت الكراهة . وكثير من أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام اشتملت على فواصل ، والفواصل

أعم من السجع كما بين الباقلاني

أما الاعتبار الثاني الذي صدر عنه كلام الباقلاني وهوتنزيه القرآن عن أن يشبه كلام الناس في تأليفه ، فالرأي فيه أنّ القرآن فيه ما في كلام العرب من الوجوه فقد أقام أبوعبيدة كتابه(مجاز القرآن) على هذه القاعدة وبنى عليها الإمام محمد بن إدريس الشافعي رسالته في أصول الفقه ، ودلل عليها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، والمبرّد في كتابه(الكامل في اللغة والأدب) ، وشرحوا جميعا القرآن بالشعر الجاهلي الصحيح .وقد تحدى القرآن العرب أن يأتوا بعشر سور أوسورة أوبآية مِثْلِه ، فلم يقدروا على التحدي . وفي هذا كله أكبر الدلالة على أن القرآن يجري على طرائق العرب في التعبير، وفيه ما في كلامهم من الوجوه ويمتاز بإعجاز نظْمه فتنزيه القرآن عن أن يشبه كلام الناس في تأليفه ينبغي أن يفهم على هذا الوجه

والاعتبار الثالث جانب الباقلاني فيه الصواب فليس كل سجْع صنْعة لفظية يتبع المعنى فيها اللفظ ، وقد وفق الجاحظ وغيره إلى إيراد شواهد من كلام السلف والأعراب ليس فيها تصنع أوتكلف وسنعرضها عليك وستدرك من دراستها أن الكلام لم يُؤَلَّفْ ثم يُزَيَّنْ ، لذلك اشترطوا في السجع أن لا يَطول وأن لا يُتَكَلَّفُ ، فليس كل سَجْعٍ مُتكلّفا كما تصور الباقلاني

ونحن نوافق الباقلاني أن تسمى هذه الظاهرة البلاغية في القرآن فواصل لسببين أولا : أن القرآن سمّاها بهذا الاسم ونحن مُتَّبِعُون لا مُبْتدِعُون . وثانيهما أن الفَواصِلَ أعمُّ مِن السَّجْعِ،لأن السجع يقع بحروف متجانسة ، والفواصل تقع على حروف متجانسة، كما تقع على حروف متقاربة المخارج ، وعلى حروف متشاكلة في المقاطع

وهناك شيء غاب عن الباقلاني هوتأثّر الأدباء بالقرآن وطرائقه في التعبير ومنها الفواصل وهذا ما قرره يحيى بن حمزة العلوي في الطراز ، قال وإن اتفقت الفاصلتان في الوزن دون الحرف سمي المتوازن ، كقوله تعالى (ونمارق

مصفوفة وزرابى مبثوثة).(٤٥)

ومن فواصل القرآن الكريم قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ .إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ..... وأما من أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فيقول يا ليتنى لم أُوت كتابيه . ولم أدرِ ما حِسَابِيَه ياليتها كانت القَاضِيَة . ما أغنى عَنِّي مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ). الحاقة١٩-٢٩.

خُتِمَتْ بعضُ الآيات فى السورة بهاء السكت :" ويؤتى بها لإعطاء ما قبلها حظه من الحركة ، وإعطاء الوقف حظه من الوقوف عليها ساكنة، فإن الحركات إذا ظهرت كانت المعانى معها أَبْيَنَ ."(٤٦)

قال الزمخشرى :" والهاء للسكت فى كتابيه وكذلك فى حسابيه وماليه وسلطانيه.وحق هذه الهاءات أن تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل وقد استحب إيثار الوقف إيثارا لثباتها فى المصحف . وقيل لا بأس بالوصل والإسقاط . وقرأ جماعة باثبات الهاء فى الوصل والوقف جميعا لاتباع المصحف (٤٧))".

ومن يتلوالسورة يدرك أن هاء السكت التى أضيفت إلى كتابى وحسابى ثم مالى حققت النسق الصوتى الذى بدئت به السورة إلى الآيتين ١٨،١٩اثم٢٦ فشاكلت الفاصلة مع الوقف .

الخلاصة إننا نسمى هذا الوجه البديعى فواصل ، لأن هذه التسمية متفقة مع اللغة والمصطلح والكتاب والسنة والواقع الأدبى ، ونهجر وندعوالدارسين إلى هجر مصطلح الأسجاع لقصور دلالته وتخلفه عن مسايرة النتاج الأدبى بعد الإسلام .

شروط الفواصل وأحكامها

إن المقصود بالفواصل فى الكلام إنما هواعتدال مقاطعها وجريها على أسلوب متفق ، لأن الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء يميل-إليه الطبع وتتشوف

إليه النفس (٤٨)، ولكنه لا يحسن كل الحسن ، ولا يصفومشربه الا باجتماع شرائط أربع :

الشريطة الأولى(٤٩) ترجع إلى المفردات ، وهى أن تكون الألفاظ فى الفواصل حلوة المذاق رطبة طنانة ، صافية على السماع حلوة طيبة رنانة تشتاف إلى سماعها الأنفس ، ويلذ سماعها على الآذان ، مجتبة عن الغثاثة والرداءة ، ونعنى بالغثاثة والرداءة أن الأديب يصرف نظره إلى مؤاخاة الفواصل وتطابق الألفاظ ، ويهمل رعاية حلاوة اللفظ وجودة التركيب وحسنه، فعند هذا تمسه الرداءة وتفارقه الحلاوة ويصير فيما جاء بمنزلة من ينظم عقدا من خزف ملون .

الشريطة الثانية راجعة إلى التركيب وهى أن تكون الألفاظ فى الفواصل فى تركيبها تابعة لمعناها ولا يكون المعنى فيها تابعا للألفاظ فتكون ظاهرة التمويه وباطنة التشويه .

الشريطة الثالثة : أن تكون تلك المعانى الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولاركيكة مستبشعة ،لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع وكانت غير قابلة لها . وإذا كانت ركيكة مجتها الأسماع ، فكل واحدة من الفاصلتين دالة على معنى حسن بانفراده ، لكن انضمام إحداهما إلى الأخرى هوالذى ينافر من أجل التركيب .

الشريطة الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفاصلتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذى دلت عليه الأخرى ، لذلك عابوا قول الصاحب بن عباد يصف منهزمين :" طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم" فالظهور بمعنى الأصلاب ، والصدور بمعنى النحور .

ومما أضافه ابن حجه أن الفواصل مبنية على الوقوف ، وكلمات الفواصل موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها لأن الغرض أن يجانس المنشىء بين القرائن ويزاوج ، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف ، إذ لوظهر الإعراب

لتلف ذلك الغرض وضاق ذلك المجال على قاصده ، ألا ترى أنهم لوبيَّنُوا الإعْرَابَ في مثل قولك :(ما أبعدَ ما فاتَ وما أقْرَبَ ما هوآتٍ) للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة فيفوت غرض الاتفاق .

والفواصل مبنية على التغيير فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافِقَ أُخْتَها ، فيجوز فيها حالة الازدواج مالا يجوز فيها حالة الانفراد . فمن ذلك الإمالة فقد يكون في الفواصل ما هومن ذوات الياء ، وما هومن ذوات الواوفتمال التي هي من ذوات الواووتُكْتَبُ بالياء حَمْلا على ما هومن ذوات الياء لأجل الموافقة. مثل (والضُّحَى واللَّيْلِ إذا سَجَى)الضحى١،٢. أُمِيلَت والضحى وكتبت بالياء . ومن ذلك حذف المفعول به نحوقوله تعالى (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَا) الضحى٣ الأصل: وما قَلَاكَ . حُذِفَتْ الكاف لتوافق الفواصل . ومن ذلك صَرْفُ مالا ينصرف كقوله تعالى : (قواريرا قواريرا) صرفه بعض القُرَّاء ليوافق فواصل السورة .

أقسام الفواصل:

•••••••••

القسم الأول :المُطَرَّف

وهوأن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أوفي بَعْضِها بفواصِلَ غَيْرِ مُتَّزِنَةٍ بِزِنَةٍ عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون رَوِيُّ الفواصل رَوِي القافية . كقوله تعالى (ما لكم لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارا ، وقد خلقكم أَطْوَارا) وكقولهم :"جَنَابُهُ مَحَطُّ الرِّحَالِ ومُخَيَّمُ الآمَالِ".

ومن الأمثلة الشعرية قول أبي تمام :

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي وأَثْرَتْ بِهِ يَدِي وفَاضَ به ثَمْدِي وأَوْرَى بِهِ زَنْدِي .

القسم الثانى: المُوازِى:

وهوأن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظريتها فى الوزن والرّوِى كقوله تعالى :(سُرُرٌ مرْفُوعَةٌ،وأكوابٌ مَوْضُوعَةٌ) ومنه قوله النبى عليه الصلاة والسلام: "اللهم أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وأعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" ومنه قول الحريرى فى المقامات : "أَلْجَأَنِى حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٌ،إلى أنْ انْتَجِعَ أَرْضَ وَاسِطٌ". وقوله " وأَوْدَى بِى النَّاطِقُ والصَّامِتُ،وَرَثَى لِىَ الحَاسِدُ والشَّامِتُ " . ومن أمثلته الشعرية قول أبى الطيب المتنبى:

فَنَحْنُ فى جَذْلٍ والرّوم فى وَجَلٍ والبَرُّ فى شغل والبَحْرُ فى خَجَل

القسم الثالث : المُشَطَّر:

وهوأن يكونَ لِكلِّ نِصْفٍ من البَيْتِ قافِيَتَان مُغايِرتان لقافِيَتَىْ النِّصْفِ الآخر، وهذا القسم مختص بالنظم ، كقوله أبى تمام :

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بالله مُنْتَقِمٍ لله مُرْتَقِبٍ فى اللَّهِ مُرْتَغِبِ

وقول مسلم بن الوليد الأنصارى:

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يَوْمِ ذِى رَهَجٍ كأنَّهُ أجَلٌ يسعى إلى أمَلْ

القسم الرابع : المُرَصَّع - الترصيع (٥٠)

استقل هذا القسم بباب من أبواب البديع قال ابن الأثير : وهومأخوذ من ترصيع العِقْد ، وذلك أن يكون فى أحد جانبى العِقْد من اللآلئ ، مثل ما فى الجانب الآخر وكذلك نجعل هذا فى الألفاظ المنثورة من الأسجاع ، وهوأن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية ، وهذا لا يوجد فى كتاب الله تعالى ، لما هوعليه من زيادة التكلف

فأما قولُ مَنْ ذَهَبَ إلى أنَّ في كِتَابِ اللهِ منه شيئا ممثلا في قوله تعالى:(إن الأبرار لفي نعيمٍ وإن الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) فليس الأمر كما وقع له ، فإن لفظة (لفي) وردت في الفقرتين معا ، وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه، لكنه قريب منه .

وأما الشعر فإني كنت أقول : إنه لا يتزن على هذه الشريطة ، ولم أجده في أَشْعارِ العرب ، لما فيه من تعميق الصنعة وتَعَسُّف الكُلْفَة ، وإذا جيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التي تكون إذا جيء به الكلام المنثور ، ثم إني عثرت عليه في المحدثين ولكنه قليل جدا فمن ذلك قول بعضهم :

فَمَكَارِمَ أَوْلَيْتَهَا مُتَبَرِّعَا وجَرَائِمُ أَلْغَيْتَهَا مُتَوَرِّعَا

واعتمد ابن حجة أمثلة الترصيع في الكتاب وهي قوله تعالى :(إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) . ومثله قوله تعالى :(إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم)

ومما جاء من هذا النوع منثورا قول الحريري في مقاماته : (فَهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجاعَ بِجَواهِرِ لَفْظِهْ ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهْ) .

قال ابن حجة : وإن كان مع الترصيع زيادة بديع كطِبَاقٍ أومُقَابَلَةٍ أوجِنَاس كان ذلك زيادة حسنة ، ومن أمثلته الشعرية عنده قول أبي فراس :

وأَقْعَانُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرَامَةً وأَمْوَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابْ

قال ابن حجة : والمبرز في هذا النوع هوالذي يخلي نظم بيته من الحشو والحشوفيه عبارة عن تكرار الألفاظ التي ليست من الترصيع بحيث لا يأتي في صدر بيته بلفظة إلا ولها أُخْتٌ تُقَابِلُها في العَجُزِ حتى في العروض والضرب كقول ابن النّبيه :

فحَرِيقُ جَمْرَةِ سَيْفِهِ لِلْمُعْتَدِي ورَحِيقُ خَمْرَةِ سَيْبِهِ لِلْمُعْتَفِي

فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه فإن المقابلة فيه حاصلة بين حريق ورحيق ، وبين جَمْرَة وخَمْرَة ، وبين سَيْفِه وسَيْبِه ، وبين المُعْتَدِي والمُعْتَفِي.

ومن شواهده من نثر الكتّاب قولُ ابن الأثير في جواب كتاب إلى بعض الإخوان (قد أعدت الجواب ولم أستعر له نظم مُلفّق ، ولا جلبتُ له حُسْنا منسّقا ، بل أخرجتُه على رسْلِه ، وغنيت بصقال حسنِه عن صقْلِه ، فجاء كما تراهُ غيْرَ ممْشوطٍ ولا مَخْطوط ، فهو يرْفلُ في أثواب بذلتِه ، وقد حوى الجمال بجُمْلته ، والحُسْنُ ما وشّتْه فِطْرةُ التّصْوير ، لا ما حشّتْه فِكْرةُ التّزْوير)

والترصيع في (وشته فطرة التصوير) و(حشته فكرة التزوير) .

وقال في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد :(منْ قوّم أوْد أوْلادهُ ، ضَرّم كمْد حُسّادِهْ) فقوّم بازاء ضرّم ؛ وأوْد بازاء كمْد ،وأولاده بازاء حساده.

كما ورد الترصيع في الأمثال المولدة مثل (منْ أطاع غضبهُ أضاع أدبَهُ).

وقد ورد هذا الضرب كثيرا في الخُطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نَباته .. فمن ذلك قوله في جُمْلة خطبه

(أولئك الذين أفَلُوا فنجَمْتم ، ورحلوا فأقَمْتم ، وأبادهُمُ الموتُ كما علِمْتُم ، وأنتم الطامعُون في البقاء بعدهم كما زعَمْتُم ، كلا ! واللهِ ما أشْخِصُوا لتقرُّوا ، ولا نُغِّصُوا لتُسَرُّوا ، ولابد أن تمُرُّوا حيْثُ مرُّوا ، فلا تثِقُوا بخدع الدُّنيا ولا تغْتَرُّوا..) ففي هذا الكلام ما اشتمل على صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن

وأما ما ورد في الشعر على مخالفة بعْض الألفاظ بعْضا فكقول ذي الرُّمّة:

كَحَلاءُ في دَعَجٍ صفْراء في نَعَجٍ كأنّها فِضّةٌ قد مَسّها ذَهَبُ (٥١)

وصدْر هذا البيت مُرصّعٌ ، وعجُزه خالٍ من الترصيع

ومما جاء من هذا القسم الثاني قولُ الخنساء :

حَامِي الحَقِيقَه مَحْمُودُ الخَلِيقَة مَهْدِيُّ الطَّرِيقه،نفّاعُ وضَرّارُ

وكذلك قول أبي صَخرٍ الهُذَلي :

سُودُ ذَوَائِبُها بيضٌ تَرَائِبُها محْضُ ضرائبُها صيغتْ من الكرم (٥٢)

شواهد على الأسجاع والفواصل

• قال عمر بن ذر :" اللهُ المستعانُ على ألْسِنَةٍ تَصِفُ ، وقُلوبٍ تَعْرِفُ ، وأعمالٍ تُخْلِفُ ".

• لما مدح عُتَيْبَةُ بنُ مِرْدَاس عبدَ اللهِ بنَ عباس قال:(لاأُعْطِى مَنْ يَعْصِى الرحمن، ويُطِيعُ الشَّيْطَان ، ويَقُولُ البُهْتَان).

• وفى الحديث المأثور :(يقول العبدُ مَالِى مَالِى ، وإنما لَكَ مِنْ مَالِكَ ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ ، وأعْطَيْتَ فأمْضَيْتَ ، أولبسْتَ فأبْلَيْتَ) .

• وصف أعرابى رجلا فقال : (صَغِيرُ القَدْرِ ، قَصِيرُ الشِّبْرِ ، ضَيِّقُ الصَّدْرِ لَئِيمُ النَّجْرِ ، عَظِيمُ الكِبْرِ ، كَثِيرُ الفَخْرِ .) (٥٣)

• ووصف بعض الخطباء رجلا فقال : (ما رَأيْتُ أضْرَبَ لِمَثَلٍ ، ولا أرْكَبَ لِجَمَلٍ ، ولا أصْعَدَ فى قُلَلٍ مِنْهُ)

• وقال عبد الملك بن مروان لأعرابى : "ما أطيب الطعام ؟ فقال :(بَكْرَةٌ سَمِينَه ، مُعْتَبَطَةٌ غَيْرَ ضَمِينَه ، فى قُدُورٍ رَزِينَه ، بِشِفَارٍ حَدِيدَه ، فى غَدَاةٍ شَبِيمَه) فقال عبد الملك : وأبيك لقد أطيبت." (٥٤)

• وقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى :لِمَ تُؤْثِرُ السجعَ على المنثور، وتُلْزِم نفسَك القوافى وإقامةَ الوَزْنِ ؟ قال : إنَّ كَلَامِى لوكُنْتُ لا أمْلُ فيه إلا سَمَاعَ الشَّاهِدِ لَقَلَّ خِلَافِى عليك . ولكنى أُرِيدُ الغائِبَ والحاضِرَ والرَّاهِنَ والغابِرَ ؛ فالحفظ إليه أسْرَع والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتَّقْيِيدِ وبِقِلَّةِ التَّفَلُّتِ ، وما تكلمت به العرب من جَيِّدِ المنثورِ أكثر مما تَكَلَّمَتْ به من جيد الموزون فلم يُحْفَظْ من المنثور عُشْرُه ، ولا ضاع من الموزون عُشْرُه.

• وقيل لأعرابى مَنْ بَقِىَ من إخوانك فقال : (كَلْبٌ نَابِحٌ ، وحِمَارٌ رَامِحٌ ، وأخٌ فَاضِحٌ .)

* وقال أعرابى لرجل سأل لئيما :(نَزلْتَ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ ، وفِنَاءٍ غَيْرِ مَعْمُورٍ، ورَجُلٍ غَيْرِ مَيْسُورٍ .فأَقِمْ بِنَدَمٍ، أوارْتَحِلْ بِعَدَمٍ .)
* وقيل لأعرابى ما خَيْرُ العِنَب : فقال (ما اخْضَرَّ عُودُهُ ، وطَالَ عَمُودُهُ ، وعَظُمَ عُنْقُودُه)

لزوم ما لا يلزم

=======

يُسَمَّى الالْتِزَامُ ، والإِعْنَاتُ والتَّضْييقُ ، والتَّشْديدُ ، والتَّضْمِينُ ، ويسميه الغربيون القافية الغَنِيَّة ، وجمالها ناشِئٌ عندهم مِنْ نُدْرَتِهَا .

وأسماؤه كلُّها ناطِقَةٌ بما يأخذ به صاحب اللزوم نفسَهُ من عُسْرِ القُيُودِ ، وثقلِ المؤونةِ وتَحْجِيرُ ماوَسَّعَهُ الله عليه ، وتَكلُّف ما لوتجنبه لم تَلْحَقْهُ تَبِعَةٌ ، ولا أدركه عَيْبٌ ، ولا وَقَعَ فى قُصُورٍ أوتقصير .

وحَدُّه عند ابن أبى الإصبع : أنْ يَلْزَمَ النَّاثِرُ فى نَثْرِهِ والشاعِرُ فى شِعْرِه قبل روى النثر والشعر – حَرْفًا فَصَاعِدًا على قَدْرِ قُدْرَتِهِ وبِحَسَبِ طاقَتِهِ مشروطا بعدم الكُلْفَة .

وتوخَّى بعضُهم الاخْتِصَارَ فى تعريفه . فقال : هوأن يلتزم الناظم فى نظمه أوالناثر فى نثره قبل حرف الروى من البيت ، أوالفاصلة من النثر – ما ليس بِلازِمٍ فى مذهب السجع . أى إن هذا الالتزام زيادة لا تتطلبها القافية سواء أكانت فى النظم أوالنثر ، فلولم تُوجَد لاستقام بدونها ولكن جِيءَ بها مُبالغة فى التناسب والتماثل وغُلوًا فى التزيين والتنميق (٥٥)

أقسامه:

القسم الأول :التزام الحركة وحدها ، كقول ابن الرومى :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يكونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وإلا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وإنَّهَا لَأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وأَرْغَدُ

إذا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بما سَيُلَاقِى مِنْ أَذَاهَا يُهَدِّدُ

فقد التزم الفتح قبل الروى

القسم الثانى : الْتِزَامُ الحَرْفِ

ويكون بحرف واحدٍ ، كقوله تعالى : (فأَمَّا الْيَتِيمَ فلا تَقْهَرْ، وأما السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ) فالراء بمنزلة حرف الروى ، ومجىء الهاء قبلها فى الفاصلتين (لزوم مالايلزم) لصحة الفَاصِلَة بدونها . ومثل ذلك قوله سبحانه (ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك) التزم فيها الراء قبل الكاف . وقوله سبحانه (فَلَا أُقْسِمُ بالْخُنَّسْ ، الْجَوَارِ الْكُنَّسْ) وقوله جل ثناؤه :(واللَّيلِ وَمَا وَسَقْ ، والْقَمَرِ إذا اتَّسَقْ) (٥٦) التزم السين قبل القاف ويكون بحرفين ، كقوله تعالى : (والطُّورْ ، وكِتَابٍ مَسْطُور) التزام فيه الطاء والواوقبل الراء .

وقوله تعالى :(ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بمَجْنُون ، وإنَّ لَكَ لَأَجْرًا غير مَمْنُون) التزم فيها النون والواوقبل النون .

ويكون بثلاثة أحرف كقوله سبحانه : (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُون ، وإخوانُهم يمدونهم فى الغَيِّ ثم لا يقْصِرُون) التزم فيها الصاد والراء قبل الواووالنون .

وابن الأثير لا يعد مثل هذه الواودلخلة فى اللزوم لأنها ليست من بِنْيَةِ الكلمة.

القســـــــم الثالث : التزام الحرف والحركة معا ، كما فى بعض الأمثلة المتقدمة، وكقول عبد الله بن الزبير الأسدى يمدح عمروبن عثمان بن عفان :

سأَشْكُرُ عَمْرًا ما تَرَاخَتْ مَنِيَّتِى إِيَادِىَ لَمْ تُمْنَنْ وإنْ هِىَ جَلَّتِ

فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ ولا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

رَأَى خَلَّتِى مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فكانت قَذَى عَيْنَيْهِ حتَّى تَجَلَّتِ

فحروف الروى - وهوالتاء- قد جاء قبله بلام مشددة مفتوحة ، وهوليس بلازم فى الفواصل ، لصحة الفواصل بدونها . ففى الأبيات نوعان من اللزوم ، أحدهما: التزام الحرف ، وثانيهما : فَتْحُه

وقد يوجد الأول بدون الثانى ، وبالعكس .

وقد جاء اللزوم كثيرا فى القرآن الكريم على رأى ابن حجة الحموى ، وقليلا على رأى ابن الأثير . يقول الأستاذ على الجندى فى كتابه(البلاغة الغنية) :" والحق إن المتتبع له يَجِدْهُ كثيرا فى الكتاب العزيز كما مَرَّ فى الأمثلة، وكقوله تعالى : (ياأَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِى مَلِيّاً)(٥٧)

وقوله سبحانه : (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ولَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيد ، قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيكُمْ بالوَعِيد) ق ٢٧ .

وقوله سبحانه : (اقرأ باسم ربك الذى خَلَقَ ، خَلَقَ الانسانَ مِنْ عَلَقٍ) وقد جاء كثيرا فى الحديث الشريف كقوله صلى الله عليه وسلم :(الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ ،وما تَنَاكَرَ منها اخْتَلَفَ)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (إذا استشاط السُّلْطَانُ تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ) ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه:(لايَكُنْ حُبُّكَ كَلَفاً ، ولا بُغْضُكَ تَلَفاً.)

وهوفى الشعر كثير مستفيض ، ويتفاوت فى الحسن والقبح تفاوتا كبيرا ، فمن المطبوع الجيد قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

إِنَّ الَّتِى زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فقلت لصاحبى ... ما كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وأَقَلَّهَا .

وإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الفُؤَادِ فَسَلَّهَا

وقول المَعَرِّى :

يَقُولُونَ فى البُسْتَانِ للعَيْنِ لَذَّةٌ ... وفى الخَمْرِ والماءِ الذى غَيْرُ آسِنِ

إذَا شِئْتَ أنْ تَلْقَى المَحَاسِنَ كُلَّهَا فَفِى وَجْهِ مَنْ تَهْوَى جَمِيعُ المَحَاسِنِ

وقوله :

ضَحِكْنَا وكانَ الضَّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً وحُقَّ لِسُكَّانِ البَسِيطَةِ أنْ يَبْكُوا
يُحَطِّمُنَا صَرْفُ الزَّمَانِ كَأنَّنَا زُجَاجٌ ولكِنْ لا يُعَادُ لنا سَبْكُ

وقوله:

لا تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ رِفْعَةً قَلَمُ البَلِيغِ بِغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السَّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلاَهُمَا هذا لَهُ رُمْحٌ وهذا أعْزَلُ